

الدولة العثمانية والمغرب العربى

مقدمة

لا شك أنه يهم كل مواطن عربى أن يلم بأحوال أى جزء من وطنه الكبير ، وأن يتعرف على أحوال مواطنيه ، وظروفهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وعلى الرغم من أن لبلاد المغرب العربى منزلة خاصة فى القلوب نظرا لأنهم أحفاد المجاهدين الأوائل الذين لهم ماض عريق . ودور فعال فى أحداث العالم الإسلامى فإن الكتابة فى تاريخ المغرب العربى خلال الحكم العثمانى لا تزال جد قليلة خاصة فى المراكز العلمية بالشرق العربى . فلا تزال الجامعات ومراكز البحث الأساسية بها لا تولى تاريخ هذه البلاد الاهتمام الذى يستحقه رغم أهميته فى مسار السياق التاريخى للعالم العربى .

حقيقة أن الفتح العربى لشمال إفريقيا فى القرن السابع الميلادى قد حقق الوحدة السياسية لهذه المنطقة لأول مرة فى تاريخها إلا أن هذه البلاد تعرضت للعديد من المخاطر خاصة من إسبانيا المجاورة التى كان يساندتها فى ذلك فرسان القديس يوحنا لدرجة أن الإسبان استطاعوا السيطرة على النقاط الرئيسية من سواحل المغرب الأوسط إلى أن تدخل العثمانيون لإنقاذ هذه البلاد ووضعوا حدا للتدخل الأسبانى فيها .

قد يتساءل البعض عن أصل الأتراك العثمانيين والسبب الذى دفعهم لمد سيطرتهم على بلدان المغرب العربى ؟

الواقع أن الروايات تختلف حول أصل الأتراك العثمانيين ، وإن كان العديد من المؤرخين يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "الغز" التى كانت تقطن أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغط المغولى صوب آسيا الصغرى والأناضول فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وقد استجاب

السلطان "علاء الدين" لطلب هذه القبيلة بمنحها مكانا تسكن فيه ، والاستقرار فيه فأقطعها عدة أقاليم ومدن ، وصار يعتمد عليها في حروب . وظلت هذه القبيلة بقيادة "أرطغرل" في خدمة السلطان علاء الدين . ولما توفي "أرطغرل" تولى ابنه الأكبر عثمان مكانه وهو الذي تنسب إليه الدولة العثمانية .

وقد نهج عثمان نهج والده في الجهاد وذاع صيته ، ثم انفتح المجال أمامه بعد سقوط دولة سلاجقة الروم ، و وفاة السلطان علاء الدين فاستقل بما تحت يده من بلاد واتخذ من مدينة "يني شهر" عاصمة له ، ودعا نفسه بسلطان العثمانيين .

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون في عهده الإسلام ، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية . وبعد وفاة عثمان في عام ١٣٢٦م واصل ابنه "أورخان" ومن جاء بعده السير على سياسته . واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظاهر عديدة من الحضارات ، وأصبحت إمبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أفاليميا وولاياتيا في آسيا وأوروبا وأفريقيا وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر في أوروبا وتشمل أراضي كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك ، والجبل الأسود ، وألبانيا ، وبلغاريا ، والمجر والبيغان وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان وما يلي ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأناضول وما بين النهرين ، وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان وبرقة وطرابلس وتونس .

وفي تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك في مجال الحرب أو في مجال السلم . وقد توالى على عرشها ستة وثلاثون سلطانا كان منهم من لا يأتي الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان

منهم بين بين ، كما كان منهم من لا يصلح مطلقا لتولى هذا المنصب الخطير الذى وصل إليه عن طريق الوراثة مما ساعد فى النهاية على ذلك أركان هذه الدولة ، وظلت الفتوحات العثمانية تتجه غربا حتى عهد السلطان "سليم الأول" (١٥١٢-١٥٢٠م) الذى اتجهت الفتوحات العثمانية فى عهده نحو الشرق حيث تمكن من مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية .

وفى عهد السلطان "سليم القانونى" (١٥٢٠-١٤٦٦م) وصلت حدود الدولة إلى معظم بلدان المغرب العربى - عدا مراكش - بهدف إنقاذه من هجمات الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بملاحقة المسلمين هناك ، واستطاعوا وقف هجماتهم ، وتخليص هذه البلاد من سطوتهم .

والجدير بالذكر أن فتوحات العثمانيين للشام ومصر جاءت من منطلق التنافس وسوء العلاقات بينهم وبين المماليك ، أما بالنسبة لبلدان المغرب العربى وبالذات الجزائر وليبيا حدثت بناء على طلب الأهالى الذين طالبوا الدولة العثمانية : بتخليصهم من الهجمات الصليبية ضد بلادهم وقد تم لهم ما أرادوا وتحولت مسئولية الجهاد هناك من الجهود الفردية للمجاهدين إلى مسئولية أكبر دولة إسلامية وقتذاك لديها العديد من القوات البرية التى تتميز بالنظام والانضباط هذا بالإضافة إلى أسطول قوى بذلت الجهود العديدة لتشييده لمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين .

ويعد الجزائر أول قطر عربى يدخله العثمانيون ، ويتخذون منه قاعدة لمد سيطرتهم على طرابلس الغرب (ليبيا) وتونس فى محاولة منهم للحفاظ على إسلام وعروبة سكان شمال أفريقيا من أخطار الغزو الاستعمارى الأوروبى وتكوين جبهة إسلامية لمواجهة أخطار الزحف الصليبي . أما بالنسبة لمراكش فإنها لم تدخل تحت السيادة العثمانية نتيجة لتمسك الأشرف

السعديين بإبعاد النفوذ العثماني عن بلادهم ، ولقدرتهم في المحافظة على استقلال بلادهم من أطماع الإسبان حتى أوائل القرن العشرين .

وقد نجحت الدولة العثمانية في المحافظة على المقومات الأساسية لبلدان شمال أفريقيا ، وهي الدين الإسلامي ، واللغة والثقافة العربية والإسلامية وإبعاد الزحف الاستعماري عن هذه المناطق لفترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون وتبعاً لذلك فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول تناول الفصل الأول المعنون "الجزائر تحت الحكم العثماني" جهاد الجزائريين لإنقاذ بلادهم من الهجمة الصليبية ، وطلبهم النجدة من أكبر دولة إسلامية في ذلك الوقت وهي الدولة العثمانية واستجابة السلطان سليم الأول العثماني لطلبهم ، ودخول الجزائر تحت الحكم العثماني ، والارتكاز عليهم لتحرير باقى مدن وبلدان المغرب العربي من أيدي الإسبان ، كما تناول هذا الفصل نظام الحكم العثماني في الجزائر وأحوال هذه البلاد الاقتصادية والثقافية خلال هذه الفترة .

وتناول الفصل الثانى المعنون "ليبيا فى ظلال الحكم العثماني" استتجاد أهل طرابلس بالسلطة العثمانية لحمايتهم من أخطار الهجمة الصليبية الشرسة ضد بلادهم ، وموافقة السلطان سليمان القانوني على طلبهم ، ونجاح القوات العثمانية فى طرد فرسان القديس يوحنا من ليبيا وجعلها قاعدة للأسطول العثماني فى البحر المتوسط ، كما تناول هذا الفصل أحوال ليبيا الاقتصادية ومظاهر الحياة الثقافية خلال فترة الحكم العثماني .

وتناول الفصل الثالث المعنون "تونس تحت الحكم العثماني" الصراع المرير الذى دار بين العثمانيين والإمبراطورية الرومانية المقدسة والذى كان يحكم باسمها وتحت حمايتها "الحسن الحفصى" حتى تمكنت الدولة العثمانية إعلان تبعية تونس لها كما تناول هذا الفصل أحوال تونس الاقتصادية والاجتماعية خلال فترة الحكم العثماني لها .

أما الفصل الرابع المعنون "العثمانيون ومراكش" فقد تناول أسباب بقاء
مراكش خارج السيطرة العثمانية وتمكنها من الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية
بعيدا عن العثمانيين والإسبان أما الخاتمة فقد شملت أهم نتائج هذه الدراسة .
وأخيرا أمل أن أكون قد وفقت في إلقاء الضوء على تاريخ المغرب
العربي الحديث في ظل الحكم العثماني ، ولأن أكون قد تمكنت من إضافة شيء
جديد للمكتبة التاريخية .
والله ولي التوفيق ،،

أ.د. عبد المنعم الجميعة

الإسكندرية - زهراء العجمي

سبتمبر ٢٠٠١